الفصل السادس

من تموز إلى كاوه

استطعنا من الفقرات السابقة أن نُكَوِّن جملة مفاهيم تؤكِّد أصالة الحضارة العراقية. ومن يتمعّن في التراثين العراقي والفارسي القديم يرى انسلال المؤثرات العراقية في أمور الفن والإدارة والدِّين بشكل لا يحتاج إلى نقاش.

والأن لنأتِ إلى مسألة حساسة ومهمة بغية التحقيق فيها ولنأخذ ما لنا ونعطي ما علينا، لا سيَّما وإننا لا نبخل على أحد ليستعير ما يشاء ما دام الفن والعلم أخذ وعطاء، وإن بإمكان أبناء الأرض أن يبدعوا تحت الظروف المتماثلة. لقد ضَحّى العرب والمسلمون بأرواحهم من أجل نشر رسالة الله والحقيقة في إيران، ومن الواضح أن الذين لا يبخلون بأنفسهم من أجل الإصلاح سوف لا يبخلون بنتاجهم في ميادين الفن والعلم. والأن لنتطرق إلى أمر مهم ما دام هذا البحث مكرساً لاستقصاء حقيقة الأعياد والإحتفال بها ولا سيَّما ما له علاقة بالربيع. أما النقطة التي سنعالجها فتخص شخصيتي "الضحاك" الخرافية "وكاوه" الحداد.

قبل كل شيء لا بد من الإشارة إلى أن النتاج القصير الأمد والقريب للفرس قد حتّم عليهم إما الاعتراف بذلك أو اختلاق تاريخ لا وجود له. وعلى أي حال، لما كانت الشخصية الفارسية كثيرة الاعتداد بنفسها والذي شعرت به أثر البروز السياسي المفاجئ لها، اختارت طريق افتراض تاريخ وهمي لا تسنده الوقائع المقارنة أو الدراسات الآثارية، الأمر الذي يحدو الأن لإيضاح نقاط كثيراً ما نمر بها ولكن دون تمحيص وبغية إلقاء الضوء على عدم علاقة العرب والأكراد ببعض ما تمت صياغته أرى التعرض إلى النقاط الأساسية في البحث.

لقد تمكن الباحثون من تقسيم تاريخ إيران إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

١. العصر الأسطوري أو الخرافي، الذي اعتمد الرواية المتناقلة دون سند.
٢. العصر التأريخي.
٣. العصر الإسلامي.

أما القسم الاول فينقسم إلى فترتين:

- الدولة "البيشدادية": وقد حكم فيها تسعة ملوك مدة (٢٤٢٧) سنة وقد ارتأى "غفاري قزويني" في تاريخ "جهان آرا"، ومصادر فارسية أخرى اعتمدت الأخبار المتناقلة غير المدوَّنة، أن الخليقة بدأت بمخلوقين هما:

"كيومرت"، وهو أول إنسان، والثاني هو الثور الذي صارت روحه (بعد موته) ملاكاً موكلاً بالحيوانات الأليفة، ونبتت من جسده كل النباتات[١]. ولعل هذا ما يذكرنا بجلجامش الذي أمسى قاضياً في العالم السفلي بعد موته وكان يرعى الحيوان في حياته. وحسب الأساطير الفارسية كان "كيومرت" أول ملك من ملوك الدولة "البيشدادية"، وتعني كلمة بيشداد "المشروع الأول". وتقول المصادر الفارسية إن "كيومرت" كان يعيش في الجبال ويلبس جلود الأسود، وإنه دخل في حرب مع الشياطين وخسر ولده "سيامك" في تلك الحرب. ومما يدعيه الزرادشتيون أن "كيومرت" هو أبو البشر أي بما يمثل آدم. ومما تقوله تلك المصادر أنه بعد موته خرج من جسده أول زوج من البشر هما: "ماشيا "وماشينا"، اللذان خرج منهما سبعة أزواج، أحدهما "سيامك" و"سيامكي"!!.

وفي الواقع لا تحتاج هذه الروايات إلى ما سينسخها فهي متناقضة وكثيرة الخرافات. أما ملك هذه الدولة الأسطورية الخامس فهو الذي نبحث عنه، أي "الضحاك"، الذي تتناقض الروايات الفارسية وغيرها في أصله ومواصفاته، وسنأتي إلى ذلك فيما بعد. إلا أن ما تشير إليه بعض المصادر الفارسية أنه أجنبي واستولى على إيران ليحكمها ألف عام!!، وذلك حسب "غفاري قزويني"[٢].

والملك الخرافي الآخر الذي تلا "الضحاك" هو "افريدون" الذي عاش في زمانه كاوه (أو كافة) الحداد في مدينة أصفهان.

- أما الدولة الخرافية "الكيانية" فقد حكم خلالها تسعة ملوك أسطوريون حكموا (٧٣٤) عاماً، أما أولهم فكان يدعى "كيقباذ". وكان منزوياً في الجبل، فأحضره البطل رستم وأجلسه على عرش إيران!!.

أما الذي تلا كيقباذ فهو "كيكاوس"، وتذكر المصادر الفارسية أن أهم عمل قام به هو خوضه لحرب شديدة ضد الشياطين والجن في "مازندران"، فوقع أسيراً بين أيديهم مع جمع من جيشه بعد إصابتهم بالعمى، لذلك هبّ البطل "رستم" لانقاذه وخاض سبع معارك تدعى "هفت خوان" قاتل خلالها التنين والساحر والشياطين وفي السابعة انتصر على الشيطان الأبيض لذا تخلص "كيكاوس"!!.

ومما سبق نفهم بأن تصوّر الفرس لتاريخهم القديم افتراضي، وأن القصص الواردة عنه لا تحتاج إلى تمحيص. أما "الضحاك" وكاوه فيقعان ضمن القسم الأول من التاريخ الخرافي الذي لا يُعتمد عليه، لا سيَّما وأن معظم تلك الأساطير لا يشير إلى علاقة بين "الضحاك" والقضاء عليه والاحتفال بالربيع، الأمر الذي يؤكد عدم علاقة الفرس بتلك الاحتفالات وأنها طارئة عليهم ومتأخرة عنهم. لا سيَّما وأن الأخير يأتي طارئاً في معظم الروايات.

قبل أن نأتي إلى الروايات المتناقضة في أصل "الضحاك"، نأتي إلى قصته الخرافية التي لا يصدقها أبسط الناس، ومع ذلك جعلت منه ناراً على علم على الرغم من سذاجتها وما فيها من أكاذيب. ولنأتِ إلى ما قاله "المسعودي" في "مروج الذهب" قال: "ومن الناس من رأى أن "الضحاك" ذا الأفواه المقدم ذكره في هذا الكتاب الذي تنازعت فيه الفرس والعرب، من أي الفريقين هو، أنه خرج بكتفيه حيَّتان فكانتا لا تتغذيان إلا بأدمغة الناس، فأفنى خلقاً من فارس، فاجتمعت إلى حربه جماعة كثيرة وأتاه "فريدون" بهم وقد سألوا راية من الجلود التي تسمِّيها الفرس درفش كاوان فأخذ أفريدون الضحاك فقيده في جبل دنباوند على ما ذكرنا، وقد كان وزير الضحاك في كل يوم يذبح كبشاً ورجلاً ويخلط أدمغتهما ويطعم تلك الحيّتين اللتين كانتا في كتفي الضحاك، ويطرد من تخلص إلى الجبال فتوحشوا وتناسلوا في تلك الجبال فهم بدو الأكراد، وهؤلاء من نسلهم وللفرس في خبر الضحاك مع إبليس أخبار عجيبة وهي موجودة في كتبه[٣]!!.

وإذا كانت رواية "المسعودي" ليس فيها إشارة إلى "كاوه" فإن ما أشار إليه "الطبري" كما سنرى "والنويري" (٦٧٧-٧٣٣هـ) في "نهاية الأرب" فيه ما يشير إلى ذلك، ومشيراً إلى علاقته بعيد المهرجان الشتوي لا الربيعي، قال النويري:

"وسبب اتخاذهم له (أي المهرجان)، أن بيوراسب (وهو الضحاك)، ويقال له ازدهاق ذو الحيّتين والأفواه الثلاثة، والأعين الستة الداهي الخبيث المتمرد، لما قتل جمشاد، وملك بعده، غيَّر دين المجوسية، وجاء إبليس في صورة خادم، فقبّل منكبيه، فنبتت فيهما حيّتان، فكان يطعمهما أدمغة الناس. فاجحف ذلك بالرعية، فخرج رجل بأصفهان، يقال له كابي، ويقال فيه كابيان، ودعا الناس إلى قتاله، فاجتمع له خلق كثير. فشخص الضحاك لقتاله، فهاله كثرة جمعه وفرّ منهم، فاجتمع الناس على كابي يملكونه عليهم، فأبى ذلك وقال: ما أنا من أهل الملك، وأخرج صبياً من ولد جمشاد، يسمى افريدون وملّكه، فأطاعه الناس فيه وملّكوه عليهم، وخرج افريدون في طلب الضحاك ليأخذ ثأر جده فظفر به، وجعل ذلك اليوم عيداً، وسماه المهرجان. ويقال أن المهرجان هو اليوم الذي عقد فيه التاج على رأس أردشير بن بايك، أول ملوك الفرس الساسانية"[٤]. ويشير "القلقشندي" أيضاً إلى أن الانتصار على "الضحاك" كان أيذاناً ببدء المهرجان لا النوروز[٥].

إن ما نستنتجه من الروايات السابقة أنها تعتمد على السطحية والسذاجة، إذ لا يعقل بأن شيئاً اسمه الشيطان يمكن أن يُنبت حيّتين في كتفي شخص، ثم عدم تمكن الناس من قتلهما، ثم عيشهما على أدمغة البشر، والأغرب من ذلك أنه عاش ألف سنة، كما مرّ بنا. ومن الواضح أن معظم من يستعرض الروايات القديمة يرى أنها إما أن تذكر هذه القصة الخرافية دون ربطها بمناسبة أو أنها تربطها بالمهرجان لا النوروز. بعد تلك الإلمامة العابرة لا بد أن نأتي إلى جملة سطور نلخِّص بموجبها ما قيل عن أصل "الضحاك" الأسطوري لنستنتج منها أموراً أخرى من نسج الخيال، الأمر الذي يؤكد فساد أسطورة الربيع الفارسية.

لنستعرض على سبيل المثال ما قاله "أبو جعفر الطبري" (٢٢٤-٣١٠هـ) حول هذا الأمر. قال الطبري:

"وحُدِّثْتُ عن هشام بن محمد، قال: ملك الضحاك بعد جم - فيما يزعمون، والله أعلم - ألف سنة، ونزل السواد في قرية يقال لها برس[٦] في ناحية طريق الكوفة وملك الأرض كلها، وسار بالجور والعسف، وبسط يده في القتل، وكان أول من سن الصلب والقطع، وأول من وضع العشور، وضرب الدراهم، وأول من تغنى، وغنى له، وقال:

ويقال إنه خرج في منكبه سعلتان فكانتا تضربان عليه، فيشتد عليه الوجع حتى يطليهما بدماغ إنسان، فكان يقتل لذلك في كل يوم رجلين ويطلي سعلته بدماغيهما، فإذا فعل ذلك سكن ما يجد، فخرج عليه رجل من أهل بابل فاعتقد لواء، واجتمع إليه بشر كثير، فلما بلغ الضحاك خبره راعه، فبعث إليه: ما أمرك. وما تريد؟ قال: ألست تزعم أنك ملك الدنيا، وأن الدنيا لك! قال: بلى، قال: فليكن كلبك على الدنيا، ولا يكونن علينا خاصة، فإنك إنما تقتله دون الناس فأجابه الضحاك إلى ذلك، وأمر بالرجلين اللذين كان يقتلهما في كل يوم أن يقسما على الناس جميعاً، ولا يخص بهما دون مكان. قال: فبلغنا أن أهل أصبهان من ولد ذلك الرجل الذي رفع اللواء لم يزل محفوظاً عند ملوك الفرس في خزائنهم، وكان فيما بلغنا جلد أسد، فألبسه ملوك فارس الذهب والديباج تيمناً به"[٧]!!.

ولنأتِ الأن إلى تفنيد ما تم نقله من مزاعم: قبل كل شيء لا يوجد إنسان يعيش بما قدر له "الضحاك" أن يعيش. والأمر الثاني إنه نزل في قرية "برس"، والتي قال عنها "ياقوت الحموي": "قرية كان ينزلها الضحاك بيوراسب ببابل"[٨]. والذي يبدو أن النسب أو الصفة "بيوراسب" هو تحريف "لبورسبا" التي تقع على مسافة (١٥كم) إلى الجنوب من مدينة بابل على الطريق إلى الكوفة، وهذا الافتراض ربما كان مقبولاً لدى واضعي هذه الافتراضات لأن "الطبري" وآخرون يشيرون إلى هذه المدينة دون تحديدها. لقد قال "الطبري": "وبلغنا أن الضحاك هو نمرود، وأن ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام ولد في زمانه، وأنه صاحبه الذي أراد إحراقه"[٩]!! ومن الواضح أن متناقلي الأخبار يرون في "بورسبا" مدينة "برس نمرود". وإذا كان هذا مقبولاً لديهم فإن هذا يجب أن يعني أن "الضحاك" حكم في العصر البابلي القديم، ولكن لما كانت الكتابة المسمارية قد وصلت حداً من النضج وذكرت الصغيرة والكبيرة عن أمور كثيرة، إلا أننا لم ولن نعثر على ملك بهذا الاسم ولا بهذه المواصفات، لا سيَّما وأن جداول إثبات الملوك معروفة.

أما نسب القتل والجور والعسف له وكذا الصلب والقطع، كأول شخص فهي جناية وتلفيق على التاريخ العراقي القديم وطعن من الفرس به واليهود.

إلا أن الأنكى من ذلك هو أنه كان يُقتل له في كل يوم رجلان ليستفيد من دماغهما، فحسب ما مرّ من قول "المسعودي" لغذاء حيّتين، أما حسب "الطبري" فلكي

يسكن الألم الناجم عن وجود سعلتين (بكسر السين)، وهي زيادة تحدث في الجسد مثل الغدة، تمور بين الجلد واللحم عند تحريكها[١٠].

وكما لا يخفى أن مثل هذا العلاج كاذب لنسب روح الهمجية إلى شخص منسوب إلى العراق حسب مصادر، أو العرب حسب أقوال أخرى.

ومن الطريف أن يشير "الطبري" إلى أن الرجل البابلي الذي حمل اللواء احتجاجاً على "تعسف" الضحاك أن أهل أصفهان كانوا من نسله!. وكما مرّ بنا أن "كاوه" افترضته المصادر الفارسية من تلك المدينة، كما ويتصل الحديث بلواء حملته ملوك الأعاجم حسب "الطبري"، ويعني به "الكافيتيان" الذي يرتبط باسم "كاوه" أو "كافة" وقيل أن العرب استولوا عليه في معركة القادسية[١١].

إذاً على الرغم مما ورد في النص من طعن بملك، ولو خرافي، كان في العراق فإن المصادر ترى أن "كاوه" من أصل عراقي.

والأن لنأتِ إلى نص متناقض السطور ولا يمكن تصديقه. قال "الطبري":

"وبلغنا أن افريدون - هو من نسل جم الذي كان من قبل الضحاك. ويزعمون أنه التاسع من ولده، وكان مولده بدنباوند، خرج حتى ورد فنزل الضحاك وهو غائب عنه بالهند، فحوى على منزله وما فيه، فبلغ الضحاك ذلك، فأقبل وقد سلبه الله قوَّته، وذهبت دولته، فوثب به افريدون فأوقفه وصيّره بجبال دنباوند، فالعجم تزعم أنه إلى اليوم موثق في الحديد يُعَذَّب هناك[١٢]!!.

وهناك قصة أخرى يذكرها "الطبري" وهي أكثر سخفاً مما مر، قال:

"وذكر ابن هشام أن الضحاك لم يكن غائباً عن مسكنه، ولكن افريدون ابن اثغيان جاء إلى مسكنه في حصن يدعى "زرنج ماه مهروزمهر"، فنكح امرأتين له تسمى إحداهما: ارونا والأخرى سنوار. فذهل بيوراسب (وكما قلت هو لقب للضحاك يبدو أنه محرّف عن بورسبا) لما عاين ذلك، وخرَّ مدلّها لا يعقل فضرب افريدون هامته بجرز (أي عمود من حديد) له ملتوي الرأس، فزاده ذلك وهلاً وعزوب عقل، ثم توجَّه به افريدون إلى جبل دنباوند، وشدّه هناك وثاقاً، وأمر الناس باتخاذ مهرماه مهروز - وهو المهرجان اليوم الذي أوثق فيه بيوراسب - عيداً، وعلا افريدون سرير الملك[١٣]!!.

وعلى أي حال إن ما نستفيده من هذه القصة على الرغم مما فيها من كذب لا تربط بين الضحاك والاحتفال بالنوروز بل بالمهرجان.

وقال "الطبري":

"والفرس تزعم أن الملك لم يكن إلا للبطن الذي منه أوسهبخ وجم وطهمورث، وأن الضحاك كان غاضباً وأنه أغضب أهل الأرض بسحره وخبثه، وهول عليهم بالحيّتين اللتين كانتا على منكبيه، وأنه بنى بأرض بابل مدينة سماها حوب، وجعل الغيط أصحابه وبطانته، فلقي الناس منه كل جهد وذبح الصبيان"[١٤]!!.

وبما يخص الحيّتين أيضاً نأتي إلى الأقوال المتضاربة حولهما في فقرة واحدة يذكرها "الطبري":

"ويقول كثير من أهل الكتب: إن الذي كان على منكبيه كان لحمتين طويلتين ناتئتين على منكبيه، كل واحدة منهما كرأس الثعبان، وأنه كان بخبثه ومكره يسترهما بالثياب، ويذكر على طريق التهويل أنهما حيّتان. يقتضيان الطعام، وكانتا تتحركان تحت ثوبه إذا جاع كما يتحرك العضو من الإنسان عند التهابه بالجوع والغضب ومن الناس من يقول: كان ذلك حيّتين، وقد ذكرت ما روي عن الشعبي في ذلك الله أعلم بحقيقته وصحته"[١٥]. فهذا هو "الطبري" يشكّك بهذه الروايات التي ليس لها من سند ولا يقبلها العقل. ولكن هل يذكر الطبري كاوه!.

الجواب: نعم لقد ذكره بصيغة "كابي" وهي صيغة عن "كايْ" أو "كافة" وقد ذكره أيضاً مع القصة الملفّقة عن "الضحاك" الخرايْ، قال: "وذكر بعض أهل العلم بأنساب الفرس وأمورهم أن الناس لم يزالوا من بيوراسب هذا في جهد شديد، حتى إذا أراد الله إهلاكه وثب به رجل من العامة من أهل أصبهان يقال له كابي، بسبب ابنين كانا له أحدهما رسل بيوراسب بسبب الحيّتين اللتين كانتا على منكبيه. وقيل: إنه لما بلغ الجزع من كابي هذا ولده أخذ عصا كانت بيده، فعلّق بأطرافها جراباً كان معه، ثم نصب ذلك العلم، ودعا الناس إلى مجاهدة بيوراسب ومحاربته، فأسرع إلى إجابته خلق كثير، لما كانوا فيه معه من البلاد وفنون الجور، فلما غلب كابي تفاءل الناس بذلك العلم، فعظموا أمره، وزادوا فيه حتى صار عند ملوك العجم علمهم الأكبر الذي يتبركون به، وسموه درفشكابيان، فكانوا لا يسيرون إلى في الأمور العظام، ولا يرفع إلا لاولاد الملوك إذا وجهوا في الأمور العظام". وقال:

"وكان من خبر كابي أنه شخص من أصبهان بحق تبعه والتف إليه في طريقه، فلما قرب من الضحاك وأشرف عليه، قذف في قلب الضحاك منه الرعب فهرب عن

منازلته، وخلى مكانه، وانفتح للأعاجم فيه ما أرادوا، فاجتمعوا إلى كابي وتناظروا، فأعلمهم كابي أنه لا يتعرض للملك، لأنه ليس من أهله، وأمرهم أن يملكوا بعض ولد جم، لأنه ابن الملك الأكبر أو شهنق بن قرواك الذي رسم الملك، وسبق إلى القيام به، وكان افريدون بن اثفيان مستخفياً في بعض النواحي من الضحاك فوافى كابي ومن معه، فاستبشر القوم بموافاته، وذلك أنه كان مرشحاً للملك برواية كانت لهم في ذلك، فملكوه، وصار كابي والوجوه لافريدون أعواناً على أمره، فلما ملك وأحكم ما احتاج إليه من أمر الملك، واحتوى على منازل الضحاك اتبعه فأسره بدبناوند في جبالها"[١٦]!!.

عن رأي آخر واهن، قال "الطبري":

وبعض المجوس تزعم أنه جعله أسيراً حبيساً في تلك الجبال، موكلاً به قوم من الجن"[١٧]!!.

وقال:"وقال بعض العلماء الفرس: لا نعلم أحداً كان أطول عمراً - ممن لم يذكر عمره في التوراة - من الضحاك هذا... فإنه ذكر عمره كان ألف سنة"!!.

وعن رواية أخرى، قال الطبري:

"وإنما ذكرنا خبر بيوراسب في هذا الموضع، لأن بعضهم زعم أن نوحاً عليه السلام كان في زمانه أو أنه كان أرسل إليه وإلى من كان في مملكته"[١٨]!.

ومن الواضح هذا خلط جديد بين فترة مفترضة لحكمة زمن إبراهيم وفترة بعيدة عنه وهي زمن نوح.

وإضافة إلى تسمية الملك الخرافي بالضحاك فقد أشار الباحث إلى تسمية بيوراسب، وهي نسبة إلى بورسبا، كما نفهم، فقد سمَّته الفرس بالازدهاق. لقد قال الطبري في ذلك:

"والعرب تسميه الضحاك، فتجعل الحرف الذي بين السين والزاي في الفارسية ضاداً، والهاء حاءاً، والقاف كافاً "[١٩].

وقال: "حدثت عن هشام بن محمد بن السائب - فيما ذكر من أمر الضحاك وتزعم أن جماً كان زوج أخته من بعض أشراف أهل بيته، ملّكه على اليمن فولدت له الضحاك. قال: واليمن تدعيه، وتزعم أنه من أنفسها، وأنه الضحاك بن علوان بن عبيد

بن عويج، وأنه ملك على معد أخاه سنان بن علوان بن عبيد، وهو أول الفراعنة، وأنه كان ملك مصر حين قدمها إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام"[٢٠]!!.

ثم يذكر الطبري آراء أخرى للعجم حول نسب الضحاك وليس في أجداده اسم عربي.[٢١] ومما قاله: "ويزعمون (أي المجوس) أن أم الضحاك كانت ودك بنت ديونجهان، وأنه قتل أباه تقرُّباً بقتله الى الشياطين، وأنه كان كثير المقام ببابل[٢٢]. وهذا رأى خرافي آخر.

وعلى أي حال، قبل أن أبدي رأياً في تحليل بعض عناصر الأسطورة، أرى من الضروري الإشارة إلى ما ذكره الدكتور جواد علي في "المفصّل" عن رأيه بأصل كلمة الضحّاك، وقال:

"وقد أخذ أهل الأخبار (ضحاكهم) هذا من (اسحاق) كما أخذ العدنانيون (ويزكهم) من (اسمان) فصيّروه (منشخر) على نحو ما ذكرت، وقد حكت إن معنى (اسحاق) في العبرانية (الضحاك)، وبدلاً من أن يقولوا إنه (ويزك) من اسم (اسحاق) في العبرانية أخذوا معنى الاسم فصيّروه اسماً عربياً هو الضحاك، وجعلوه قحطانياً من الأزد"[٢٣].

وعلى أي حال، باعتبار كاتب هذه السطور آثارياً، فإن وجهة النظر التي تتناقلها كتب التاريخ المجردة عن السند تكون خاضعة للأخذ والرد والتمحيص في محتوياتها لكي تعطي هذا الموضوع المهم حدوداً واضحة ومبررات فكرية وتاريخية لا نغبن فيه حق أحد، ولا ندعي كذب ما حملوه في ذاكرتهم وعلى الأقل في جزء من التفاصيل.

فما هي حقيقة "الضحاك" وأسطورته من وجهة الدلائل الآثارية؟.

يعد الخوض في مادة المعتقدات من الأمور المهمة والحساسة ما دام يحتاج إلى المقارنات والدراسة المستفيضة بشكل موسع ومستمر. ويتم الوصول إلى النتائج المرجوة باستعراض المادة المكتوبة ومراجعة الأشكال الفنية ذات العلاقة بالمعتقدات.

لنبدأ الآن من منطلق نعده النقطة المهمة للدراسة مسألة "الضحاك" المفترض، وذلك بمراجعة لقبه "البيوراسب".

لقد أشار الباحث آنفاً بأن أقرب اسم إلى اللقب "بيوراسب"، هو "بورسبا"، وهي مدينة "برس نمرود" التي أشارت المصادر العربية الإسلامية والفارسية إلى أنها تقع قرب

مدينة بابل وفي الطريق إلى الكوفة. وكما رأينا أن الروايات تربط بين هذه المدينة والنبي إبراهيم، وأن إضافة كلمة " نمرود" هي إشارة إلى ملك خرافي كان يحكم المدينة، لم نعثر له على اسم بين الملوك البابليين، ومن الجدير بالذكر أن عامة الناس في المنطقة يعتقدون بتلك الرواية، ويرون في زقورة المدينة العالية والمتصخرجة الطابوق الأخضر أنها مكان أحرق فيه النبي ابراهيم ولم تتل النار منه.

اذاً "بورسبا" هي المدينة التي ينتسب إليها الملك الخرافي "الضحاك"، الذي سيطر على العالم من مصر وجزيرة العرب والعراق ثم إيران والصين ثم الهند!!.

ومن المعروف أن هذه خرافة لا تقرُّها الدلائل المكتوبة أو الدراسات المقارنة من قريب أو بعيد.

ولكن هل ندحض كل شيء بخصوص هذا الملك الخرافي؟

قبل كل شيء ينبغي أن نعلم بأنه لا يمكن أن ينشأ شيء من لا شيء، إلا أن هناك نقطة مهمة وهي أنه حينما تختلط الأسطورة أو المعتقد بأمور أخرى للتعبير عن صيغة سياسية يحصل الإرباك من هنا.

يرى الباحث بأن قصة "الضحاك" الخرافي "وكاوه" أسطورة دينية لا علاقة لها بالسياسة. ولكن لما كان الفرس قد اقتبسوا العديد من مآثر الحضارة العراقية فقد حاولوا تحريف الجانب الفكري الأسطوري إلى سياسي بقصد مدّ سيطرتهم الوهمية واختراع ملوك لهم من أمهات أفكارهم ما دام التاريخ الفارسي قصير الأمد.

ولنأت إلى نقطة مهمة وهي إذا كان "الضحاك" المفترض هو من "بورسبا"، فما هو أكثر شيء يميز هذه المدينة عن غيرها؟.

الجواب: - لقد كانت بورسبا أهم مدينة بابلية لعبادة إله مشهور منذ الفترة الأكادية في أقل الاحتمالات، ثم انتشرت عبادته إلى أرجاء العراق وسورية. وقد امتدت عبادته إلى الفترات المتأخرة مثل السلوقية اليونانية، كما عثر المنقبون على معبد لهذا الإله في مدينة الحضر العربية، فضلاً عن كتابات تُشير إليه. وهذا الإله الذي نتحدث عنه هو "نابو" أو "نبو".

تُرى ما هي الشعارات والأوصاف التي حددت مواصفات هذا الآله؟.

لقد اعتبر البابليون الإله "نابو" بمثابة ابن لإلههم الكبير "مردوخ" وتبرز أهميته في

أعياد الربيع العراقية القديمة بكونه هو الذي يُخَلِّص أباه من الأسر كبديل عن تموز، لذلك كان الموكب الاحتفالي يبدأ من هذه المدينة لينتهي إلى مدينة بابل.

إذا لهذا الإله دور أساسي في أعياد الربيع العراقية، ومن هنا ينبغي التأكيد عليه بما يوضِّح الافتراض الذي نأتي إليه كبديل عن الأسطورة الفارسية المشوَّهة.

لقد كانت أهم مواصفات هذا الإله هو بكونه إلهاً للمعرفة والحكمة، كما عُبد كمقرر للمصائر، وحينما انتقل إلى الآشوريين أمسى مفجراً للينابيع.[٢٤].

واذا ما أتينا إلى الشعار الذي يمثل الإله "نابو" فما وصلنا من تمثيل له شكل القلم ما دام إلهاً للمعرفة، إلا أن هناك شعاراً آخر له وهو "التنين".

وعلى أي حال، يبدو أن أفضل أسلوب نأتي منه إلى وجه المقارنة هو بحث خصائصه في فترات متأخرة.

حينما يستعرض المرء الفكر الديني لمجموعة من سكان العراق يتواجدون في الجنوب بشكل خاص، وأعني بهم الصابئة، يأتي إلى نتائج مهمة تتمثل في أنهم يحملون بعض مواصفات الديانة العراقية القديمة التي كانت منتشرة بين السومريين والبابليين ولا سيَّما فيما يتعلق بالمواصفات الروحانية المفترضة للكواكب السيارة، فلديهم على سبيل المثال"شامش" وهو "شمش" البابلي أي "الشمس" و"سين" أي القمر، وكذلك هو استمرار للإله الذي نحن بصدده وقد خصّوه بعين المواصفات العراقية القديمة بكونه الهاً للمعرفة والحكمة. وبصدد هذا الإله لديهم نقطة مهمة نستفيد منها ونعدها نقطة أساسية.

يرى الصابئة بأن كل يوم من أيامنا السبعة يتحكم فيه كوكب سَيّار، فيوم الأحد هو للشمس، والاثنين هو للقمر، والثلاثاء هو للمريخ، أما الأربعاء هو للكوكب عطارد، لقد قالوا فيه بأنه "أربه هبشبه" ويتحكم به "أنبو"[٢٥]. ولو أتينا إلى مدينة الحضر لرأينا وجود سبعة تماثيل من الرخام تمثل الأيام السبعة التي هي عبارة عن الكواكب السيارة. أما التمثال الذي يُمَثِّل الأربعاء فقد مثلوه بشكل رجل له أجنحة صغيرة فوق الرأس وعند الساقين أيضاً، وحمل بيسراه عصا يعلوها جناحان أسفلهما شكل دائرتين. ومما تجدر الإشارة إليه أن تمثالاً بهذه المواصفات موجود في المتحف العراقي وقد دعاه الإغريق "هرمس" والرومان "ميركوري"[٢٦]، ومن المعروف أن هذين

الاسمين إشارة إلى الكوكب عطارد، أي بما يماثل ما خصصت له الصابئة من أيام الأسبوع. وتمثل الأجنحة سرعة تنقله ولكونه مراسلاً للآلهة، ومن المحتمل أن يُمَثِّل ذلك السرعة العالية التي يتحرك بها هذا الكوكب.

وحينما نراجع بعض كتب التنجيم العربية الإسلامية مثل "التفهيم" للبيروني[٢٧] وكتب التنجيم الهندية[٢٨] وحتى الأوروبية[٢٩] فإننا نرى بأن رمز عطارد يتَمثَّل بعصا يلتف عليها أفعوان ويتوّجها جناحان، وقد سمّي هذا الشعار لدى اليونان بشعار هرمس أو "الكادوسيوس" Caduceus.

وعلى أي حال، لو رجعنا إلى أرضية حضارتنا العريقة وتفحصنا آثارها فهل نرى مثل هذا الشعار فيها؟.

ربما يعلم القليل بأن الشعار المتمثل بعصا يلتف حولها أفعوان شعار عراقي يعود لنحو أربعة آلاف ومائتي سنة في أقل تقدير، وقد عثر الآثاريون على أجزاء من حجر الستيتايت يظهر عليه بالنحت البارز المشهد أو الشعار الذي نتحدث عنه كما في (الشكل ٩)، وهو مُهدى من الأمير السومري جوديا إلى الإله "نن كش زيدا"، ويعني اسمه "سيد الخشب الجيد"، ويبدو أن التسمية جاءت من القضيب الخشب الذي تلتف عليه الحيّتان. وقيل ربما "كان الرب الشجرة"[٣٠].

شكل (٩)

وعاء من حجر الستياتيت مُهدى من الأمير "جوديا" إلى الإله "نن كش زيدا" من معروضات متحف اللوفر بباريس.

على أي حال لو أوغلنا في التاريخ الفكري اليوناني نرى وجود إله أطلقوا عليه اسم "اسكولاب" أو "اسكلبيوس" وهو "في الميثولوجيا اليونانية إله الطب وحارس الأطباء (وقد) زعم لوشيانوس (المؤرخ اليوناني) أنه ولد من بيضة غراب على صورة حيةّ... وكان يرمز إلى اسكولابيوس تارة بصورة حيةّ وأخرى بصورة رجل عبوس لحيان يجعل حول ذراعه حيةّ أو تجعل الحية حول عصا قابض عليها بيده ...ولا يزال الأطباء يستخدمون رسم الحيةّ على بعض أوراقهم وملابسهم الرسمية إشارة إلى أنهم من أتباع اسكولابيوس أو تفاؤلاً بالشفاء مع الدلالة على الحكمة"[٣١].

وهنا نأتي إلى نقطة مهمة، وهي أن إله مدينة "بورسبا" من مواصفاته الحكمة والمعرفة، وبما أن الطب معرفة فيكون بذلك هو الإله المقصود في كونه رمزاً للطب، ولكن هل من ربط بين "نن كش زيدا" و"نابو"؟.

الجواب: لقد كان هذا الإله في التراث العراقي القديم "ابن ننازو إله الأطباء وكان إله خصب يموت ويُبعث حيّاً مثل تموز الذي كان رفيقه عند باب السماء وصُوِّر برأس ذي حيّتين تخرجان من كتفه ولحيته طويلة وعلى رأسه التاج"[٣٢].

ومن الواضح أن هذا التمثيل كان قبل اتخاذ اليونان لشعارهم المقتبس عن العراق بألفي سنة.

إن ما توصلنا إليه من نتيجة أن الإله الأكادي والبابلي "نابو" يماثل في جانب خصائصه الإله السومري "نن كش زيدا".

وعلى أي حال، بعد انتهائنا من إيجاد المشابهات والمطابقات لمواصفات "نن كش زيدا" بالإله "نابو" ثم اقتباس اليونان والرومان له بشكل "اسكولابيوس" و"هرمس" ثم مواصفات الكوكب عطارد في التنجيم العربي والهندي، فإننا نأتي إلى نقطة مهمة تتمثل في أن المواصفات المعطاة لكل من "نن كش زيدا" المتمثلة بشخص تخرج من ظهره افعوان أو بعصا فقط عليها أفعوان فإننا نسترجع الذاكرة بمواصفات " الضحاك" المزعوم. وقبل أن ننهي الموضوع ترى هل تفيدنا التسميات السابقة في تحديد اسم "الضحاك"؟

من الضروري أن نعلم بأن معبد الإله نابو في بورسبا كان يدعى "أي - زيدا" وزقورته التي سميت "بيت القادة السبعة للسماء والأرض"[٣٣]، (الشكلان ١٠، ١١).

شكل (١٠)

زقورة ومعبد "أي زيداك" (الازدهاق) في بورسبّا.

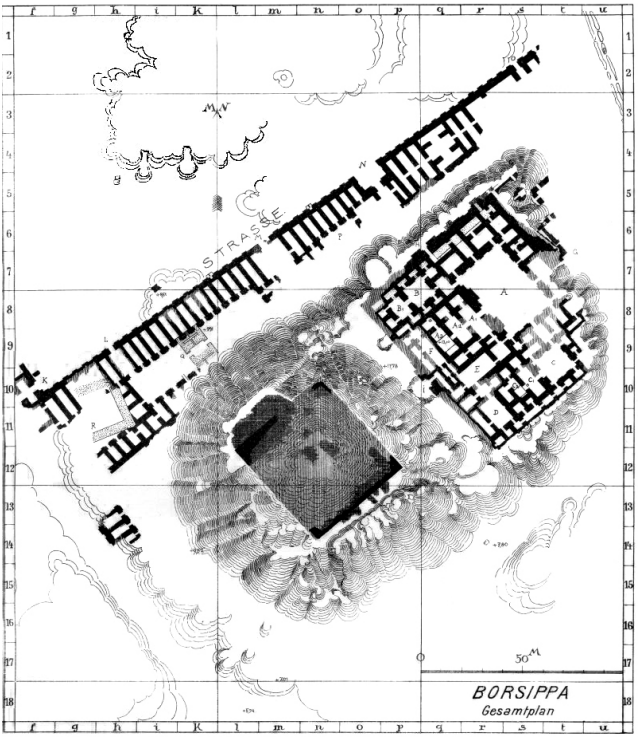

شكل (١١)

المخطط الأرضي لمعبد "أي زيداك" في بورسبّا.

والآن: ألا يوجد شبه واضح بين الاسم الفارسي "ازدهاق" و"أي - زيدا". ولكن ربّ سائل يسأل بأنه ما زال هناك فرق بين "أي-زيدا" و"الازدهاق".

نجيب بأنه في اللغة السومرية والكتابة المسمارية حينما يضاف للاسم أو ينسب إليه فإن الأداة "أك" تستعمل. وإذا كان هناك حرف ساكن فإن الألف فقط من "أك" تظهر في الكتابة المقطعية في حين يهمل الكاف، إلا أنه كان يلفظ حتماً، لأن الأصل "أي-زيد- أك" فكتبت دون كاف، إلا أن المختصين بالسومريات يضعون "كافا") صغيرة في النهاية للإشارة إليها ولم تكتب في النص المسماري. وهي وبالحرف اللاتيني كالآتي: E - zid - ak = E - zid - (a) k.

وهذا يعني أن معبد "نابو" كان يلفظ "أي -زيد- أك" وهو اسم سومري على الرغم من أن "نابو" تسمية أكادية بابلية. أي أن الإله "نابو" كان يُسمَّى باسم معبده، والذي نرى أنه تحول إلى "ازدهاق" الفارسية.

وحسب هذا الرأي نكون قد برّأنا "الضحاك" المزعوم مما وجهت إليه الأسطورة الفارسية من مواصفات لا تليق بالحضارة العراقية إلى جانب كونها منفية من العقل والمنطق تماماً. وقبل أن ننهي الكلام على الإله "نابو" لابد من التطرق إلى بعض مواصفاته من خلال نصوص تركها عاهل بابل الكبير "نبوخذ نصر" (٦٠٤-٥٦٢ ق.م) في معبد "أي - زيداك". لقد قال في كتابه مدونة برقم (٢١١٨٩- ب)، حسب ترقيم البعثة الألمانية في مطلع القرن العشرين ونقتبس منها سطراً:

"نبو (نابو) أيها الإله امنحني الخلود". وكذا كتابة من تل ابراهيم المقابل للمعبد جاءت بهذا النص ورقمها (٢١١٤٩). وكتابة أخرى وجدت في المعبد تشير إلى بناء شارع الموكب للإله نابو ويسميه "الوزير المُبجَّل" ليمنحه الخلود ورقمها (٢١١٨٧- ب). وفي الكتابة المرقمة (٢١٢٠٣) وجدت في معبد "أي - زيداك" قال نبوخذ نصر:

"أي زيداك ذلك المعبد الحقيقي الذي شيدته في بارسيب وبسور ضخم من القار والطابوق المحروق أمرت بتطويقه،

أيها المعبد خاطب ربي نابو. حدِّثه عني بأحسن ما تشاء".

وهذه إشارات إلى أن "نابو" كان يمنح الخلود والصحة الدائمة. كما وتفيدنا

عبارات النص الأخير في التأكيد على أن المعبد كانت له صفة حيّة ويحمل مواصفات إلهه ويمكن مخاطبته وبالتالي فإن الـ "أي زيداك" يمكن أن يكون "نابو" وبديلاً عنه.

وبعد هذا الاستعراض لتلك الاندماجات التي طمست معالم الأصول العقائدية نأتي إلى قصته "كاوه" أو "كافة".

على أي حال، إن المصادر الفارسية أشارت إلى أن "كابي" أو "كاوه" شخص بابلي جاء إلى أصفهان. وبما أنه لا علاقة له بالربيع، كما ورد في المصادر الفارسية القديمة والعربية الإسلامية، نستخلص أن "كابي" أو "كاوه" هو عينه تموز وقد تم تحريف قصته. ومما تجدر الإشارة إليه أن الأمير السومري العراقي جوديا حينما قدّم إناءه الذي تزينه الأفعوان كان ذلك والكوتيون الذين قدموا من المناطق الجبلية الشمالية موجودين في جنوب القطر قبل انحسارهم مرة أخرى تجاه الشمال، وهذا يعني الإمكانية الواضحة للتطعيم الفكري بين السومريين والكوتيين، لا سيَّما وإن النصوص المسمارية من الألف الثاني ق.م التي جائتنا من مدينة "ماري"، على الحدود العراقية السورية أشارت إليهم بلقب "قوتو"[٣٤]. ومن ثم فإن استمرار التراث العراقي القديم بين أبناء شعبنا الكردي يؤكد ارتباطهم بوطنهم وبأخوتهم حملة الحضارات السابقة من سومريين وأكاديين وبابليين وآشوريين، وبالتالي فإنهم هم الذين طعّموا الفكر الفارسي بالعديد من المهارات والتقاليد ومن ذلك الاحتفال بأعياد الربيع عبر العراق...والنوروز عراقياً...ولكن إذا ما أتينا إلى "كاوه" أو "كافة" (البابلي) الذي ذهب إلى أصفهان وغامر بنفسه للقضاء على" الضحاك" فإننا نرى بأن أهم خصائصه هو دحر قوة وصفت بأنها معتدية. وكما هو شائع لدى المواطنين الأكراد أنه كان حداداً على الرغم أن معظم المصادر العربية الإسلامية لا تشير إلى ذلك.

وعلى أي حال، لو أننا تذكرنا شخصية تموز الراعي الذي امتاز بالجسارة، وجاء بمصيره ليعلل لنا الفصول الأربعة ابتداء من الربيع، تأتي إلى ذاكرتنا مقارنة سريعة ومؤكدة بين شخصيته وكاوه الحداد. نستنتج من ذلك إذاً أن شخصية البطل الكردي هي نفسها مواصفات تموز مما يشير إلى عمق الأصول العراقية القديمة.

كاوه ... كابي ... كافيان ... كيبيل

لقد أشار الباحث سابقاً إلى أن مادة الأديان والمعتقدات صعبة التناول والتحليل ولا سيَّما إذا كانت المادة المبحوثة تخص فترات متأخرة الأمر الذي يستدعي سعة الاطلاع وإيراد الأدلة المقنعة الخاصة بكل حالة ننوي بحثها.

إننا كثيراً ما نسمع باسم البطل الكردي المعروف "كاوه"، الذي كان حدّاداً، وحينما قضى على الشرّ تمّ الاحتفال الذي يصادف وقت الربيع.

والآن لنسأل: هل هناك من شخصية، ولو أسطورية عقائدية، باسم "كاوه" وبمواصفاته أو قريباً من ذلك في التاريخ القديم؟

إن من يتابع تراثنا العراقي القديم يراه ثروة هائلة من الفرضيات والمواصفات الفكرية التي وضعت لحلّ إشكالات الحياة والكون. وكما نعلم أن عقائد العراق القديم لها صلة بعناصر الطبيعية كالسماء، الأرض، النبات، الحيوان، المرض، الولادة، بل حتى المعادن والنار.

لقد أشرت إلى أهم أسطورة في العراق القديم تتمثل في قصة تموز وعشتار. إلا أنه من الواضح أن بطل هذه القصة لم يكن دوماً "تموز" بل بمواصفاته التي يأخذها الإله "مردوخ" في بابل، والإله "آشور" لدى الآشوريين، في حين كان إلاله الشمس لدى الكنعانيين بمواصفات تموزية أيضاً.

إذاً لقد كان الإله المسيطر في مدينة أو دولة هو الذي يأخذ دور تموز لكل من حالتي بعثه وموته. ولكن ماذا عن مواصفات "كاوه" إذ يحق لنا أن نسأل فيما إذا كان هناك ما يوازيها في الفكر العراقي القديم؟.

لقد ورد في النصوص السومرية أن هناك إلهاً للتعدين والنار يدعى "كيبيل" وبالأكدية "كيرو"، "الذي كان يُحِل النور مكان الظلمة ويحبط خطط السرّاق وصهر المعادن"[٣٦]، قد كان ذلك منذ نحو (٤٣٥٠ سنة). والآن لنسأل فيما إذا كان "كاوه" هو عينه "كيبيل" لا سيَّما وأنه ورد اسمه بشكل "كابي" و"كابيان"؟.

على أي حال إذا كان الجواب بالإيجاب فهذا يعني واضحاً أن "كيبيل - كاوه" قد أخذ دور تموز في إعلان احتفالات الربيع. وهذا يعني بشكل واضح إلغاء الفرضيات الفارسية بشأن أعياد الربيع.

ولا بد هنا من الإشارة إلى أن السبب الذي تحول بموجبه كاوه "كيبيل - كاوه" إلى شخصية بشرية بدلاً من إله هو لأن المعتقدات التالية والناضجة كالدين الإسلامي لا تسمح بصيغ آلهة بشر. وهذه الصفة لا تنفي عن كاوه الأصل العراقي التموزي.

الهوامش

١. د. أبو مغلي، محمد، إيران دراسة عامة، (منشورات مركز دراسات الخليج العربي - جامعة البصرة - سلسلة إيران والخليج - ٢٤)، ١٩٨٥، ص ٧٦.

٢. ابو مغلي، ص ٧٦، والمصدر الذي اعتمده القاضي أحمد غفاري قزويني، تاريخ جهان ارا، طهران، ١٣٤٣، ص ٢٩.

٣. المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، باريس، ج/٣، ص/٢٥١.

٤. النويري، شهاب الدين، نهاية الأرب في فنون الأدب، السفر الأول، ص/١٨٨. وقد ورد لقب الضحاك بيوراب في النص وأصلح إلى بيوراسب.

٥. القلقشندي، صبح الاعشى في صناعة الإنشا، ج/٢، ص/٤٢١.

٦. تراجع الحاشية (٨) ومصدرها:

أبو جعفر الطبري، تاريخ الرسل والملوك، (تحقيق محمد أبو الفضل)، دار المعارف، (ذخائر العرب - ٣٠)، ط/٢، ج/١، ص/١٩٦. وبالأصل "نرس" وهناك خطأ في الاستنساخ والصحيح "برس" أي "برس نمرود".

٧. الطبري، ج/١، ص/١٩٦.

٨. الطبري، ج/١، ص/١٩٦، حاشية (١).

٩. الطبري، ج/١، ص/٢٣٤.

١٠. الطبري، ج/١، ص/١٩٦، حاشية (٤).

١١. أبو مغلي، ص/٧٦. حاشية (٥).

١٢. الطبري، ج/١، ص/,١٩٧

١٣. الطبري، ج/١، ص/١٩٧.

١٤. الطبري، ج/١، ص/١٩٧.

١٥. الطبري، ج/١، ص/١٩٨.

١٦. الطبري، ج/١، ص/١٩٨- ١٩٩.

١٧. الطبري، ج/١، ص/١٩٩.

١٨. الطبري، ج/١، ص/٢٠١.

١٩- ٢١. الطبري، ن ج/١، ص/١٩٤.

٢٣. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت، ١٩٧٦، ج/١، ص/٤٩٩.

٢٤. بوتيررو، جان، الديانة عند البابليين، (ترجمة د. وليد الجادر)، بغداد، ١٩٧٠، ص/٤٥، أما كان الإله نابو مفجراً للينابيع فقد أشار إليه الباحث الألماني "ادزرت" في Venterbuch der Methology.

٢٥. الليدي دراوور، الصابئة المندائيون. (ترجمة نعيم بدوي وغضبان الرومي)، بغداد، ١٩٦٩، الكتاب الأول، ص/١٣٦.

٢٦. فؤاد سفر ومحمد علي، الحضر مدينة الشمس، بغداد، ١٩٧٥، ص/٢٧٧.

٢٧. البيروني، أبو الريحان، التفهيم لأوائل التنجيم، لندن، ١٩٣٤، ص/٢٥٣-٢٥٤.

٢٨. Krisgnamurti, Tyothish, Krishnamurti Padhati, Madras, 1966, p.399.

٢٩. Mayo, Jedd, Astrology, Britain, 1969, 147-8.

٣٠. الأحمد، سامي، المعتقدات في العراق القديم، (عن دار الشؤون الثقافية)، بغداد، ١٩٨٨، ص٣٢.

٣١. البستاني، بطرس، دائرة المعارف، بيروت، ١٨٧٨، ج/٣، ص/٥٩٤- ٥٩٦.

٣٢. الأحمد، ص/٣٧.

٣٣. الأحمد، ص/٣١- ٣٢.

٣٤. كولدفاي، روبرت، بابل وبورسبا، (ترجمة د. نوال خورشيد)، بغداد، ١٩٨٥، ص/١٤١- ٤٣.

٣٥. طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، (منشورات دار البيان)، بغداد، ١٩٧٣، ص/٣٧٣.

٣٦. الأحمد، ص/٢٩.